قصـــة زواج
وفلسفة المهر

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال رسولُ عبد الملك: ويحك (يا أبا محمد) لَكأنّ دَمَكَ والله من عدوك فهو يفور بك لتَلِجَّ في العناد فتُقتَل، وكأني بك والله بين سَيْفَيْن قد فغرا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفرّ من حتف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخاليبها.

ههنا هشام بن اسماعيل عاملُ أمير المؤمنين، إنْ دَخَلَته الرحمة لك استوثق منك في الحديد، ورَمَى بك إلى دمشق؛ وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يطعم لحمك السيف يَعَضُّ بك عضّ الحية في أنيابها السمّ؛ وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه، وبهذا الوجه مُضَرَّجا بدمائه، وبهذه اللحية مُعَفَّرةً بترابها، وبهذا الرأس مُحْتَزًّا في يد (أبي الزُّعَيْزِعة) جلاد أمير المؤمنين، يلقيه من سيفه رَمْيَ الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه.

وأنت (يا سعيد) فقيه أهل المدينة وعالمها وزاهدها، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه: «لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسَرَّه» فإن لم تَكْرُمْ عليك نفسك فَلْيَكْرُمْ على نفسك المسلمون؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفقهُ في جميع الأمصار إلى الموالي؛ ففقيه مكة عطاء، وفقيه اليمن طاووس، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير، وفقيه البصرة الحسن، وفقيه الكوفة ابراهيم النَّخَعيّ، وفقيه الشام مكحول، وفقيه خراسان عطاء الخراساني. وإنما يتحدث الناس أن المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشيّ العربيّ (أبي محمد سعيد ابن المُسيِّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد علم أهل الأرض أنك حَجَجْتَ نيفاً وثلاثين حجة، وما فاتتك التكبيرة الأولى في المسجد منذ أربعين سنة، وما قمت إلا في موضعك من الصفّ الأول، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل في الصلاة؛ ولا وجد الشيطان ما يعرض لك من قِبَله في صلاتك ولا قفا رجل؛ فالله الله يا أبا محمد، إني والله ما أغشّك في النصيحة؛ ولا أخدعك عن الرأي، ولا أنظر لك إلا الخير ما أنظر لنفسي؛ وإن عبد الملك ابن مروان مَنْ عَلِمْتَ؛ رجلٌ قد عمّ الناس ترغيبه وترهيبه، فهو آخذُك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحِبّ؛ وإنه والله يا أبا محمد، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك، رعايةً لمنزلتك عنده، وإكباراً لحقك عليه؛ وما أرسلني أخطُب إليك ابنتك لوَلِيّ عهده إلا وهو يبتذل نفسه إليك ابتذالاً ليَصِلَ بك رَحِمَه، ويُوَثِّقَ آصرته؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبمُلكه وَرَعاً وزهادة، فما أحوج أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شرّاً ما بهم عنهم غنى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنى عنه؛ ولستَ تدري ما يكون من مصادر الأمور ومواردها. وإنك والله إن لَجَجْتَ في عنادك وأصررتَ أن تردّني إليه خائباً، لَتَهِيجَنَّ قَرَمَ سيوف الشام إلى هذه اللحوم ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها. ولأمير المؤمنين تارتان: لينٌ وشدة؛ وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلني رسول الثانية . . .

* * *

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكأنه لا يخلُص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه في الأرض، هيبةً منه وفرقاً من إقدامها عليه؛ وقد لان رسول عبد الملك في دهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساغ من الرجل مساغ الماء العذب في الحلق الظامىء، واشتدّ في وعيده حتى ما يشكّ أنه قد سقاه ماء حميماً فقطّع أمعاءه؛ والرجل في كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض، لو تحوّل الناس جميعاً كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلألأ.

وقلّب الرسولُ نظره في وجه الشيخ، فإذا هو هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة، كأنْ لم يجعلْ له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة، ولم يملأ الجو سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ كالصبيّ الغِرّ قد رأى الطائرَ في أعلى الشجرة

فطمع فيه فجاء من تحتها يناديه : أن انزل إلىّ حتى آخذك وألعب بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

« ياهذا ، أمّا أنا فقد سمعت ، وأما أنت فقد رأيت ، وقد روينا أن هذه الدنيا لاتعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ماجئتني أنت به ، وقسْه إلى هذه الدنيا كلّها ، فكمْ — رحمك الله — تكون قد قَسَمْتَ لى من جناح البعوضة . . . ؟ ولقد دُعيتُ من قبل إلى نيفٍ وثلاثين ألفاً لآخذَها فقلت : لاحاجة لى فيها ولافى بني مروان ، حتى ألقى اللهَ فيحكم بيني وبينهم . وهأنذا اليوم أدعى إلى أضعافها والى المزيد معها ؛ أفأقبض يدى عن جمْرة ، ثم أمدّها لأملأها جمْراً ؟ لا والله مارغب عبد الملك لابنه فى ابنتى ، ولـكنه رجلٌ من سياسته إلصاق الحاجة بالناس ليجعلها مَقادةً لهم فيُصَرِّفَهُم بها ؛ وقد أعجزه أن أبايعه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وماعبد الملك عندنا إلا باطلٌ كابن الزُّبير ، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك ، فانظر فانك ماجئت لابنتى وابنه ، ولـكن جئت تخطبني أنا لبيعته . . .

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولـكن منْ عسى أن تجد لـكريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله اليك ؟ انك لراعٍ وانها لرعية وستُسأل عنها ، وما كان الظن بك أن تسيء رِعْيتها وتبخس حقّها ، وأن تعْضلَها وقد خطبها فارس بني مروان ، وان لم يكن فارسهم فهو ولىّ عهد المسلمين ، وان لم يكن هـذا ولا ذاك فهو الوليد بن أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاث أرفع الشرف فـكيف بهنّ جميعاً ، وهنّ جميعاً فى الوليد . ؟

قال الشيخ : أمّـا إنى مسؤول عن ابنتى ، فما رغبت عن صاحبك الالأنى مسؤول عن ابنتى . وقد علمت أنت أن الله يسألني عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما الا يكونون فيه الا وراء عبيدِها وأوباشها ودُعّارها وفجّارها . يخرجون من حساب الفَجَرَةِ الى حساب القَتَلَة ، ومن حساب هؤلاء الى الحساب على السرقة والغصْب ، الى حساب أهل البغى ، الى حساب التفريط فى حقوق المسلمين . ويخفّ يومئذ عبيدُها وأوباشها ودعّارها وفجارُها فى زحام الحشر ، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما ، وعليهم أمثالُ الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى ، لو لم أضِنّ بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوْبَقْتُ نفسى . لا والله مابيني وبينكم عمل ، وقد فرغْتُ مما على الأرض فلا يغرّ السيْف منى فى لحم حىّ .

* * *

ولما كان غداةُ غدٍ جلس الشيخ فى حَلْقته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ، فسأل رجلٌ من عرض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، إن رجلاً يلاحيني فى صَداق ابنته ويكلّفني مالا أطيق . فما أكثرُ ما بلغ إليه صداقُ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداقُ بناته ؟

قال الشيخ : رَوَيْنا أن عمر رضى الله عنه كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول : « ماتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم[1] . » ولوكانت المغالاة بمهور النساء مَكْرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورَوَيْنا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء أحسنُهنّ وجوهاً وأرخصُهنّ مهوراً . »

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر ، وحسنها هو يغليها على الناس ؛ تـكْثُر رغبتُهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : أنظر كيف قلت . أهم يساومون فى بهيمة لاتَعقل ، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها ، يُغلِيها على مطامع الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ خير النساء من كانت على جمال وجهها ، فى أخلاقٍ كجمال وجهها ؛ وكان عقلها جمالاً ثالثاً ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء ، يَسَّرَتْ عليه ثم يسرت ثم يسرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارياً ، فهذه لايكون رخص القيمة فى مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة فى عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها ، أىْ

---
(١) الدرهم خمسة قروش

لحمقها؛ وهى بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث: رحى يد، وجَرّةَ ماء، ووسادةً من أدَم حشوها ليف . وأولَم على بعض نسائه بِمُدَّين من شعير، وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق . وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر، ولكنه يَشْرَعُ بسُنّته ليُعلِّم الناس من عمله أن المرأة للرجل نَفْسٌ لنفس، لا متاعٌ لشاريه، والمتاع يُقوَّم بما بُذِلَ فيه إنْ غالياً وإن رخيصاً، ولكن الرجل يُقوَّم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحمَل إلى داره، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحمَلَ إلى داره؛ مهرُها معاملتها، تأخذ منه يوماً فيوماً، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجُلِها ما دامت فى معاشرته. أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى، أفلا ترى هذه الغالية — إن لم تجد النفس — قد تكون عروس اليوم ومطلّقةَ الغد؟!

وما الصـداق فى قليله وكثيره إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء، ولكنّ الرجل قبلٌ، ولكن الرجل قبل. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواءً، وقد يحمل الجبان فى كل يدٍ سيفاً، ويملك فى داره مائة سيف؛ فهو إيماء، ولكن البطلَ قبلٌ، ولكن البطل قبلٌ.

مائة سيف يمهَر الجبانُ بها قوّته الخائبة، لا تغنى قوّتَه شيئاً، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله. ويوشك أن يكون المهر الغالى كالتدليس على الناس وعلى المرأة، كى لاتعلم ولا يعلم الناس أنه ثمن خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباهتْ النساء بيسر مهرها، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله، وكفّتْ حماقتها أن تُفسد عليه.

فصاح رجلٌ فى المجلس: أيها الشيخ، أفى هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ: نعم؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى: « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » . فهى زَوْجُه حين تجده هو، لاحين تجدُ ماله؛ وهى زوجه حين تُتَمِّمُه لا حين تنقصه؛ وحين تلائمه لاحين تختلف عليه: فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها، فيكونان معاً كالنّفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه، يريد من جسمه الحياة لا غيرها .

وأما من كلام رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقد روينا: « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوّجوه . إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير . »

فقد اشترط الدينَ، على أن يكون مرْضياً لا أيَّ ذلك كان؛ ثم اشترط الأمانة، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً وعلى حقوقها أميناً، وفى معاملتها أميناً، فلا يبخسها، ولا يعنتها، ولا يسئ إليها؛ لأن كل ذلك ثلمٌ فى أمانته. فان ردّتْ المرأة منْ هذه حاله وصفتُه من أجل المهر — تقدّم إليها بالمهر من ليست هذه حالَه وصفته؛ فوقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هُوَ بها، وفسد النسل بهما جميعاً، وأُهمِلَ من لا يملك، وتعنّستْ من لا تجد؛ ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة؛ فيقع معنى الزواج ويبقى المعطّلُ منه هو اللفظ والشرع .

هل علمتْ المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها، وتبلوَ فيه بلاءها؛ وهل يقوم مال الدنيا بحقّها فيما تعمل وماتجاهد، وهى أم الحياة ومُنْشِئَتُها وحافظها. فأين يكون موضعُ المال ومكانُ التفرقة فى كثيره وقليله، والمال كلّه دون حقّها؟ .

ولئن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به وتكون مراتبهم على مقداره، تكثر به مرة وتقل مرة — إلا اذا فسد الزمان، وبطلت قضية العقل، وتعطّل موجب الشرع، وأصبحت السجايا تتحوّل، يملكها من يملك المال، ويخسرها من يخسره؛ فيكون الدّين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه، والمتدلّى فى غير حقه؛ وبهذا يرجع باطل الغنيّ ديناً يتعامل الناس عليه، ودينُ الفقير بَهْرَجًا لا يروج عند أحد. وليس هذا من ديننا

دينِ النفس والخلُق ، وإن ألف بعير يقتنوها الرجل خالصةً عليه ثابتةً له لاتزيد فى منزلة دينه قدْر نملة ولا مادونها . والحجران : الذهب والفضة — قد يكون شعاعها فى هذه الدنيا أضوأ من شمسها وقمرها ، ولكنهما فى نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذُهما الرجل من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك أنهما فى قدرِ الشمس والقمر .

وهلاك الناس إنما يُفْضِى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم وذنوبهم ؛ فهذا هو الانسان المدْبِرُ عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لايكون أبوه أباً فى عطفه ، ولا أمه أمّاً فى محبتها ، ولا ابنه ابناً فى برِه ، ولا زوجته زوجةً فى وفائها ؛ وإنما يكونون له مهالك كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ؛ يعيّرونه بالفقر ، ويكلّفونه ما لا يطيق ؛ فيدخلُ المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك . »

* * *

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه وقام الى الصلاة ؛ ثم خرج الى داره فتلقته ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى : « رَبَّنَا آتِنَا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنة» . فما حَسَنَةُ الدنيا ؟ قال : يابُنَيّةُ هى التى تَصْلُح أن تُذْكَرَ مع حسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ الصالحة ، ولا للمرأة . . . .

وطُرِق الباب فذهب الشيخ يفتح ، فاذا الطارقُ (أبو وَداعة) وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقده أياما . فدخل فجلس . قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تُوُفِّيَتْ أهلى فاشتغلْتُ بها . »

قال الشيخ : « هلاّ أخبرتنا فشهدناها ؟ » ثم أخذ يفيض فى الكلام عن الدنيا والآخرة . وشعر أبو وداعة أن القبر مايزال فى قلبه حتى فى مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ؛ فقال (سعيد) : « هل استحدثت امرأةً غيرها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومَن يُزَوّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا . . . . »

أنا ، أنا ، أنا . . . دوّى الجوُّ بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً فى تسبيح الله يَطِنُّ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ، ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد ، وكأنها كلمةُ زوّجته إحدى الحور العين .

فلما أفاق من غَشْيَةِ أُذنِه . . . قال : « وَتَفْعَل ؟ »

قال (سعيد) : « نعم » وفسر (نعمْ) بأحسن تفسيرها وأبلغه ، فحمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوّجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) . ثلاثة دراهم مهر الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

وغشى الفرحُ هذه المرة عينى الرجل وأذنيه ، فاذا هو يسمع نشيد الملائكة يطِن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

ولم يشعرْ أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه ما يصنع ، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرّف اليه بهذا الصوت الذى لايزال يطنّ فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا»

وصار إلى منزله وجعل يفكّر ممّن يأخذ ، ممّن يستدين ؟ فظهرت له الأرض خلاء من الانسان ، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . .

وصلى المغربَ وكان صائماً ، ثم قام فأسرج ، فاذا سراجه الخافت الضئيل يسطع لعينيه سطوع القمر ، وكأن فى نوره وجهَ عروس تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . . »

وقدّم عشاءه ليفطر ، وكان خبزاً وزيتا ، فاذا الباب يقرع ؛ قال : من هذا ؟ قال الطارق : سعيد ! . . .

سعيد ؟ سعيد ؟ من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؛ أبو على ؛ أبو الحسن . فكّر الرجل فى كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيّب ؛ إلا الذى قال له : « أنا . . . . »

لم يخالجه أن يكون هو الطارق ، فان هذا الامام لم يطرق باب أحد قطّ ، ولم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فاذا به سعيد بن المسيّب ، فلم تأخذه عينُه حتى رَجَع القبرُ فهبطَ فجأة بظلامه وأمواته فى قلب المسكين وظن أن الشيخ قد بَدا له ، فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذّرَ إصلاح الغلطة ؛ فقال : « يا أبا محمد ، لو . . لو . .

لو — لو أرسلت إليَّ لأتيتُك ! »

قال الشيخ : « لأنت أحقُّ أن تُؤْتَى »

فما صكّت الكلمة سمع المسكين حتى أبلس الوجودُ في نظره، وغشِيَ الدنيا صمتٌ كصمت الموت، وأحسّ كأن القبر يتمدّد في قلبه بعروق الأرض كلّها ! ثم فاء لنفسه وقدّر أن ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر، وليس محلّه هو إلا أن يطيع، وأنّ من الرجولة ألاّ يكون معرّة على الرجولة، ثم نكّس وتنكّس، وقال بذلّة ومسكنة : « ما تأمرني ؟ »

تفتحت السماء مرة ثالثة، وقال الشيخ : « إنك كنت رجلاً عزَبًا، فتزوّجت، فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك ؛ وهذه امرأتك ! »

وانحرف شيئًا، فاذا العروس قائمة خلفه مستترةٌ به، ودفعها إلى الباب وسلّم وانصرف.

وانبعث الوجود فجأةً، وطنَّ لحنُ الملائكة في أذن أبي وداعة : « أنا، أنا، أنا ... »

* * *

دخلت العروس الباب وسقطت من الحياء، فتركها الرجل مكانها، واستوثق من بابه، ثم خطا إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت، فوضعها في ظل السّراج كي لا تراها ؛ وأغمض السراج عينيه ونشر الظلّ ...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بحُصَيّات ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه، وأن قد وجب حقُّ الجار على الجار « وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التليفون اليوم » فجاءوه على سطوحهم وقالوا : ما شأنك ؟ .

قال : « وَيْحَكُمْ ! زوّجني سعيد بن المسيّب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة . »

قالوا : وسعيد زوّجك ! أهو سعيد الذي زوّجك ! أزوّجك سعيد ؟ . »

قال : « نعم »

قالوا : « وهي في الدار ! أتقول إنها في الدار ؟ . »

قال : « نعم »

فانثال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار.

وغشيت الرجل غشيةٌ أخرى فحسب داره تتيه على قصر عبدالملك ابن مروان، وكأنما يسمعها تقول : « أنا، أنا، أنا ... »

* * *

قال أبو وداعة : « ثم دخلتُ بها، فاذا هي من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحقّ الزوج . »

قال : « ومكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلّمتُ، فردّ عليّ السلام، ولم يكلمني حتى تفرّق الناس من المجلس وخلا وجهه، فنظر اليّ وقال :

« ما حالُ ذلك الأنسان ... ... ؟ . »

* * *

أما ذلك (الأنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر وليّ العهد ابن أمير المؤمنين وبين حجرة أبي وداعة التي تُسَمّى دارًا ... ! إلا أن هناك مضاعفةَ الهمّ، وهنا مضاعفة الحُبّ.

وما بين (هناك) إلى القبر مدةَ الحياة ستَخْفُتُ الروح من نور نور، الى أن تنطفىء في السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) الى القبر مدةَ الحياة — تسطع الروح بنور على نور، الى أن تشتعل في السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى، وما عند الله خير وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) وَيَرصُدُ غوائلهُ حتى وقعت به المحنةُ، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطًا في يوم بارد، وصبّ عليه جرّة ماء، وعرضه على السيف، وطاف به الأسواق عاريًا في تُبّان[1] من الشّعر، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة، وبهذه الرذيلة، وبهذه المخزاة قال عبد الملك بن مروان : « أنا ... ... ؟ »

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سراويل قصير يلبسه الملاحون .